

ثنائية السجن والحرية في الشعر الثوري الجزائري - مقارنة سيميائية-

Duality of Imprisonment and Freedom in Algerien Revolutionary Poetry, A
Semiotic Approach

* أحسن بوحناش

Ahcene bouhenache

مخبر البحث في الدراسات الأدبية واللغوية والتعليمية والترجمة

جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل / الجزائر

Mhammed seddik Ben Yahia University-jijel/ Algeria

ahcene.bouhenache@univ-jijel.dz

تاريخ النشر: 2025/09/02

تاريخ القبول: 2025/06/10

تاريخ الإرسال: 2025/03/15

ملخص البحث

شكلت الثورة الجزائرية حدثا مفصليا في تاريخ شعب عانى من ويلات استعمار همجي استعمل كل الوسائل المحرمة في سبيل تحقيق أهدافه الإمبريالية، ومثلت الخلاص الذي أخرج البلد من حжим دام أكثر من قرن وثلاثين سنة، فاستبشر بها الأدباء والشعراء، ومثلوا لسان حال الثوار في جل مراحل كفاهم، من بينها كفاهم في السجون، إذ مثل السجن تيمة جوهرية في قصائدهم، ومن هنا اخترنا نحن موضوع السجن والحرية ليكون هو المجال الذي سوف نشغل فيه في ورقتنا البحثية هذه، ونهدف من خلال هذا الموضوع إلى التطرق إلى الدور الذي لعبه شعر السجون في الكفاح ضد المستعمر الفرنسي، وإلى دوره في إرساء مفاهيم الحرية، منطلقين من تساؤلات رئيسية تتمثل في: ما هي مكانة شعر السجون في تاريخ الأدب العربي؟ وما هي الدلالات السيميائية لعناوين قصائد السجون الجزائرية؟ وكيف عبر الفضاء السجني عن مطالب المقاومة الجزائرية؟ كيف نصف تجاذبات السجن مع الحرية؟

الكلمات المفتاحية: سجن؛ حرية؛ شعر ثوري؛ سيمياء؛ ثورة جزائرية

Abstract :

The Algerian revolution represented a pivotal event in the history of a people who suffered the atrocities of a brutal colonialism that used all prohibited means to achieve its imperialistic goals. It symbolized the liberation that rescued the country from a hell that lasted more than 130 years, Writers and poets welcomed it with great enthusiasm, representing the voice of the revolutionaries throughout various stages of their struggle, including their resistance in prisons. Prison became a central theme in their poetry.

* أحسن بوحناش: ahcene.bouhenache@univ-jijel.dz

Hence, we have chosen the topic of prison and freedom as the focus of our research paper. Through this study, we aim to explore the role of prison poetry in the fight against French colonialism and its contribution to establishing concepts of freedom. Our research is guided by key questions, including: What is the place of prison poetry in the history of Arabic literature? What are the semiotic implications of the titles of Algerian prison poems? How did the prison space express the demands of the Algerian resistance?

Keywords : Prison; Freedom; Revolutionary Poetry; Semiotics; Algerian Revolution.



1. مقدمة:

ظل الشعر منذ بدايات تشكله في الحضارات المختلفة يتأثر بشكل تطور الحضارة الإنسانية، وهو ما أفرز الاختلاف في شكل معمار القصيدة وموضوعاتها من عصر أدبي إلى آخر، بحسب وسائط التداول الخاصة بهذا الموروث الأدبي، ففي البدايات الأولى لهذا الجنس من النظم كان مشافها به، ينتقل إلى الناس عن طريق الرواية، وقد ظل كذلك إلى أن ظهرت الطباعة فصار مقيدا بالكتابة، ومع تطور آليات الكتابة ووسائطها وكذلك الوسائط التي صار يُلقَى بالشعر من خلالها إلى القراء تنوعت إمكانيات تصميم النصوص، والترتيب لها كي تقدم للقراء ويتفاعل معها الجمهور، فانتقلت النصوص الشعرية في الحاضنة العربية من مطولات على العمود - نظام البيت الشعري المستقل - يسميها الرواة بحسب حرف الروي الذي يحكم أواخر هذه الأبيات، إلى نصوص قد تكون على نفس نظام الشكل القديم، أو على نظام التفعيلة المستحدث، وصارت في الوقت نفسه تقيد بعناوين تحيل على موضوعاتها، وتكون بذلك الجسر الذي يربط النص بالمتلقي، ولهذا فإن الشعراء في العصر الحديث قد عكفوا على أن يختاروا لمنظوماتهم الشعرية عناوين تلعب دورا بالغا في تفسير عملية التلقي من خلال الإحالة على الموضوعات التي تعالجها، ساعين في ذلك على أن تكون آلية جذب وأداة لرفع سقف انتباه القراء في الوقت نفسه.

ولعلنا حيننا نتابع شكل الكتابة الشعرية في الجزائر بعد أن ظهرت منظومات إعلامية شجعت على الكتابة الشعرية انطلاقا من المرحلة الاستعمارية، فإننا سنلاحظ كيف أن الشعراء قد انتبهوا على أهمية العناوين في ترصيع نصوصهم الشعرية التي ظلت تمثل انعكاسا لآلامهم وأحلامهم في الوقت نفسه.

وإذا كان الشعر قد انتقل من نظام البيت على العمود المقيد إلى نظام التفعيلة فهذا دليل على عشق هذه النخب إلى الحرية والرغبة في كسر القيود والاعتناق من كل أسباب الجبر. خصوصا حينما يكون هؤلاء الشعراء تحت وطأة ظلم الحياة وقهر السلطة المستبدة.

فالشعراء الجزائريون في المرحلة الاستعمارية كانوا أول من رفع من خلال الكتابة هذا الرافض لهيمنة الاستعمار والظلم الذي سلطه على أوطانهم، فكانت كتابتهم تميل إلى رفع راية النضال من أجل طلب الحرية ورفع الظلم، فكتبوا ضد الجهل وانتشار أسباب الهوان، ولما كانت الثورة التحريرية رافقوا راية الجهاد ضد الاستعمار ونالوا بذلك حضهم من القهر

والتنكيل. حيث سجلوا لذلك من خلال نصوص سجلت لحظة القهر ولهف الشعراء للحرية. ونحسب أن من أهم هذه النصوص ما كتبه كل من مفدي زكريا وأحمد سحنون في هذا السياق، وهو ما جعلنا نختار تتبع القصيدة المرتبطة بالسجن في الشعر الجزائري، وإبراز معنى أن يكون الإنسان حراً، محاولين الإجابة على التساؤلات التالية: ما هي مكانة شعر السجن في تاريخ الأدب العربي؟ وما هي الدلالات السيميائية لعناوين قصائد السجن الجزائرية؟ وكيف عبر الفضاء السجني على مطالب المقاومة الجزائرية؟ وللإجابة على هذه التساؤلات اخترنا العمل وفق عناوين رئيسية تبحث في تاريخ شعر السجن عند العرب، وفي حضور السجن في الشعر الثوري الجزائري، متكئين في ذلك على إجراءات المنهج السيميائي، باعتباره منهجاً يفتح على دلالة العلامات والرموز المختلفة، ويُسهل على الباحث الوصول إلى خفايا وخبايا القصيدة.

2. السجن والحرية في الشعر العربي:

زخر الشعر العربي القديم بالعديد من المضامين الشعرية التي عكست الطبيعة النفسية والعاطفية للشاعر في تلك الفترة، ومثلت الواقع الاجتماعي الذي ميز علاقة الفرد بقبيلته وعلاقة القبيلة بالقبائل الأخرى، وبأئي الأسر كأحد المواضيع التي تم التطرق إليها من طرف أصحاب النظم، فظاهرة الأسرى في الحروب كانت موجودة بكثرة، وهي ظاهرة ثقافية عايشها الشعراء، وتم وصفها بأفخم الصور وأحسن الأبيات، ولكن للأسر خصوصيته التي تفرده عن باقي المضامين؛ لأن العرب في القديم تميزوا بصفة هي في الأصل معاكسة ومضادة للسجن، وهي الارتحال والانتقال من مكان إلى آخر؛ أي أن الحرية هي أسلوبهم في الحياة؛ لذلك كان السجن بالنسبة لهم موت نفسي قبل الموت البيولوجي، فهنا يمتنى الشاعر "أبو إسحاق الصابي" الموت بعد السنين الطويلة التي قضاها في السجن وأفقدته الرغبة في الحياة:

«إذا لم يكن للمرء بُدٌّ من الردى فأسهله ما جاء والعيش أنكدُ

وأصعبه ما جاء وهو راتعُ تطيف به اللذات والحظ مُسعدُ

فإن أكَّ شرَّ العيشتين أعيشها فإني إلى خير الماتين أقصدُ¹

يعيش الشاعر حالة الفقدان، فقدان نفسي وجسدي وعاطفي، فتلك الحياة التي كان يتمتع فيها بحرية تسمح له بالانتقال والتجوال، وبالتقاء الأحباب والأصحاب، وبالتعبير عن وجدانه وأحاسيسه عن طريق الشعر لم تعد موجودة، وأصبحت الجدران المينة هي رفيقه اليومي، الذي يحرمه من رؤية العالم، وانطلاقاً من هذا الفقد انتقل الشعراء إلى مرحلة التوسل « بكل سبب للخروج من الحبس، ووراء هذا الموقف دوافع نفسية زينت لهم هذا الادعاء العريض المزخرف. وأوجز تعليل لتلك الدوافع أنها ردود فعل تعويضية عما يصاب به الشاعر من سقوط وهوان في منزل الذل والظلم، فيسعى وقد خسر مكانته، أن يوثق نفسه وأن يعيد إليها قيمتها واعتدادها. فيقابل الوقائع الصارخة بالادعاء الواهم»²،

وفي نفس السياق يمكن أن يلاحظ المتتبع لمسار حضور السجن في القصائد العربية القديمة، أن الشعراء فيها كانوا ضحايا الحكام والسلاطين في غالب الأحيان، فقد حُبسوا إما دون سبب مقنع، وإما بسبب هجاء مس أحد الحكام، وهذا ما نجده مع الشاعر الجاهلي " طرفة بن العبد" الذي هجا ملك الحيرة "عمرو بن هند"، فأدخله الأخير السجن، يقول:

«أسلمني قومي ولم يغضبوا لسوء حلت بهم فادحة

كم من خليل كنت خالته لا تترك الله له واضحة

كلهم أروع من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحة»³

وإذا أضفنا إلى هذا بعض الموضوعات التي تحدث فيها شعراء آخرون مثل وصف السجن، ووصف التعذيب الذي كانوا يتعرضون له، وأيضاً الاعتذار والتشاؤم والتوسل، سنقول أن هذه أبرز موضوعات أدب السجون في الشعر العربي القديم.

أما في الأدب العربي الحديث وبعد تبني الدول العربية لمفهوم القومية، ظهرت مواضيع جديدة متعلقة بشعر السجون، تركز على الوحدة العربية، وعلى الثورات ضد المحتل الغربي الذي اغتصب معظم الأقاليم العربية، وعلى الحرية، التي أميط اللثام عنها واتضح غاياتها وأهدافها أكثر في العصر الحديث، وإذا تحدثنا عن السجن والحرية في هذه الفترة الزمنية سوف يتجه البحث إلى الشعوب التي عانت من ويلات الاستعمار طويلاً، ولعل أبرزها الجزائر—تتطرق إليها في الجزء الثاني من المقال— وفلسطين التي لا تزال محتلة من طرف الحركة الصهيونية، التي اعتمدت على الاحتجاز والأسر والسجن في تعاملها مع الثوار والمنتفضين ضدها، ويأتي شاعر الثورة الفلسطينية "محمود درويش"، كأحد ضحايا تلك الأساليب القذرة، فقد تعرض للسجن بسبب أشعاره المدافعة عن حرية شعبه، فأبدع في السجن قصائد لعبت دوراً كبيراً في تحفيز المقاومة ضد المحتل سواء في فلسطين، أو في باقي الأقطار التي تعاني من فقدان الحرية، يقول في إحداها:

«وزناتي...موصده !

ملوثة، يا كؤوس الطفولة

بطعم الكهولة...

ألا تعلمين بأني

أسير اثنتين؟

جناحي: أنت وحريري»⁴

يصف هنا "محمود درويش" الزنانة الضيقة التي احتجز فيها، ويعبر عن أحاسيسه اتجاه وطنه الذي أفقده هويته، ويشكو حاله إلى المستمع بأنه يفقد الحرية والوطن.

وتيمناً بالعصر الجديد الذي طغت فيه مفاهيم الحرية والمساواة على كل جوانب الحياة، أطلق على شعر ذلك العصر والذي اشتهر بالتفعيلة الواحدة اسم الشعر الحر، فأصبح الشاعر حرّاً في تعابيره، غير مقيد في موضوعاته المشبعة بروح الوطنية، ونستحضر هنا الشاعر المصري "أمل دنقل" الذي جعل من شعره لسان حال الحرية يقول في ديوانه الشهير "البكاء بين يدي زرقاء اليمامة":

آه.. ما أقصى الجدار

عندما ينض في وجه الشروق...

ربما لو لم يكن هذا الجدار

ما عرفنا قيمة الضوء الطليق

عبر الضوء الطليق تفتح أبواب التراسل بين النور والحرية، ويصبح المطلب ليس التنقيب عن الآثار الفرعونية في صعيد مصر، وإنما المطلب هو ثقب النور للأجيال القادمة، أي الحرية الإنسانية التي زهت بها العصور البدائية الأولى دون أن تعرف أهميتها الحقيقية.⁵

3. سيميائية الفضاء السجني في الشعر الثوري الجزائري:

بعد أن سيطرت المناهج النقدية السياقية على النظرية الأدبية لقرون عديدة، ظهرت مناهج نقدية في النص الأول من القرن الماضي تهتم في مقارباتها على العلاقات اللغوية الموجودة في النص الأدبي، وعلى أدبيته وجاليته، بعيدا عن نفسية المبدع وبعيدا عن الظروف التاريخية والاجتماعية المساهمة في إنتاج النص، من بين هذه المناهج نجد السيميائية، التي اتفقت أغلب الدراسات أن الأصل اللغوي للكلمة هو يوناني، وتحديدًا من مفردتي semein و logos اللتان تعنيان معا علم العلامات، وهو العلم الذي ظهر بداية القرن العشرين كنتيجة حتمية للمجهودات اللغوية التي جاء بها عالم اللسانيات السويسري "فرديناند دي سوسير Ferdinand de saussure" في أوروبا، وأيضا لمجهودات الفيلسوف الأمريكي "تشارلز بيرس Charles pierce" في أمريكا، فالسيميائية «عند كل الغريين هي العلم الذي يدرس العلامات، وبهذا عرفها كل من تودروف وغريماس وجوليا كريستيفا وجون دوبوا وجوزيف راي دوبوف»⁶، وبما أن العلامات اللغوية تتميز بنوع من التفرد عن باقي الأنواع، نجد أن السيميائية تنفتح على العلامات غير اللغوية، لتشمل ميادين ومجالات عديدة، كما أنها تختلف عن باقي المناهج اللغوية في أنها تنفتح إلى حد ما على التأويلات، ولا تكتفي بدخل النص وعلاقة مفرداته فيما بينها، وسوف نحاول نحن التركيز على عنصرين إثنين سيميائيا وهما: العنوان والمكان، من خلال اسمين شعريين خلدا اسميهما بأحرف من ذهب في أدب السجون الجزائري، إنهما: مفدي زكرياء، وأحمد سحنون.

أ- سيميائية العنوان ورحلة الوصول إلى الدلالة:

تكمّن قيمة العنوان في أنه العتبة النصية الأولى التي تقابل القارئ عند ولوجه إلى أي عمل أدبي، سواء شعرا كان أو نثرا، وصعب أن يتم الاستغناء عليه من طرف الكاتب؛ لأنه الأداة التعريفية الأولى التي يُعرّف بها المتن، ومن مميزات العنوان أن يحمل معاني قوية، وأن يكون مختصرا، وأحيانا يصاحبه عنوان فرعي يكون شارحا له، ومعرّفا به. من جهة أخرى يمكن أن نشير إلى أن اختيار العنوان لا يكون بالبساطة والسهولة المتوقعة، فهو مسألة تحتاج إلى نظر وتدقيق؛ بسبب تركيبته وطبيعة المادة التي يتألف منها، وفي أغلب الأحيان يدل العنوان على شخصيات، أو أماكن أو برامج سردية لها علاقة بالعمل الإبداعي، لا يكسب معناه إلا بقراءة ذلك العمل⁷؛ فالعنوان ورغم ميزة الإيجاز عنده فهو قادر «على حمل الدلالة وتوجيهها، وهو ما يحوله أن يكون عنصرا جوهريا في عملية الكتابة عموما والكتابة الإبداعية على وجه الخصوص، فهو من الناحية الإستراتيجية بمثابة الطعم الذي يمكن أن يجذب القارئ ليكون شريكا في لعبة القراءة»⁸، وتلك الدلالة تتحقق عبر وظائف يقوم بها العنوان، اجتهد الكثير من النقاد والمنظرين في تحديدها واستخراجها، ويعد "جيرار جينيت Gerard Genette" من أبرز النقاد الذين اجتهدوا في ذلك، وجاء لنا بأربع وظائف له:

- وظيفة تعيينية: عن طريقها يضع الكاتب اسما لكتابه يميزه بين باقي الكتب.

- وظيفة وصفية: عبارة عن وصف معين يتعلق بمضمون الكتاب أو نوعه.

- وظيفة إيحائية: ترتبط بالأسلوب الذي يعين به الكتاب.

- وظيفة إغرائية: هي وظيفة تستهدف القارئ، من خلال إغرائه لقراءة الكتاب⁹.

والشيء الملاحظ أن هذه الوظائف تُحدد علاقة العنوان بالأقطاب الرئيسية لعملية القراءة: (الكاتب، القارئ، النص)، وهنا تكمن أهمية العنوان الكبيرة، فعلاقته علاقة وطيدة بكل الأطراف، من جهة أخرى، قد لا يقصد بالعنوان عنوان "كتاب"، فالفصول لها عناوين، وللمباحث عناوين، وللقصائد الشعرية أيضا عناوين، وعند ذكر عناوين القصائد سوف نلاحظ أن شعراءنا اهتموا بها بشكل كبير، خاصة عناوين القصائد الثورية، نظرا لأهمية إيصال موضوع القصيدة للمتلقى، وقصائد السجن لم تخرج عن هذا الإطار، فقد كانت عناوينها عامرة بالدلالات التي تغرق النص. نستهل هذا الطرح مع "مفدي زكرياء" شاعر الثورة الجزائرية، « باعتبار مفدي زكرياء في طليعة الشعراء الذين ذاقوا مرارة السجن أكثر من مرة، وشاهد عن قرب ما يجري في تلك الزنانات من ضروب التفتيل وشتى أنواع العذاب والتنكيل المسلط على المناضلين»¹⁰، فألف العديد من القصائد وهو يقبع في حجرات سجن "بربروس" لمدة ثلاث سنوات متتالية أثناء الثورة التحريرية، كتب قصائده بالدم عندما لم يجد القلم والحبر، فكان هو الشاحن لمعنويات الثوار، والمتكلم بلسان المقاومة التحريرية، زحرت عناوينه الشعرية في السجن ببلاغة في النسيج، وبقوة في الطرح، وبغزارة المعنى، وفخامة المبنى.

ويأتي العنوان "الذبيح الصاعد"، متصدرا لعناوين قصائده في ديوان اللهب المقدس، وهو عنوان له دلالاته القشبية التي تعكس حدثا لا يمكن أن يحى ليس فقط من ذاكرة الشاعر، وإنما من ذاكرة كل جزائري يعتز بثورته وبوطنه، هو حدث إعدام المجاهد الثائر "أحمد زبانة" بالمقصلة، حدث برهن على وحشية الاستعمار الذي طالما ما افتخر بمبادئ الحرية التي كان السباق في تبنيها. يبدأ العنوان بجملة اسمية، والجلل الاسمية تدل على معاني الثبات والاستقرار والقوة، كأن الشاعر يريد من الثوار أن يجعلوا من الحادثة سببا في استمرارهم في الكفاح، وليس سببا في استسلامهم ورضوخهم، فالشاعر جعل من القصيدة فرحا وانتصارا جديدا للثورة، ولم يُشعر أبدا المتلقي أنه خسر أحد رموزه؛ كما أنه وصف الشهيد زبانة (الذبيح) بأنه حي يرزق (الصاعد)، فكل ما حدث أنه انتقل من مسكنه في الأرض إلى مسكنه عند ربه سبحانه وتعالى.

- "زنزانة العذاب رقم 73"، هو عنوان خالد لقصيدة خالدة، نظمها في زنزانة مظلمة قاسية في سجن بربروس يوم 28 أبريل 1955، نظمها في ذهنه ووجدانه لاستحالة كتابتها في تلك الظروف، من الناحية اللغوية تتألف القصيدة من تعريف بالإضافة (زنزانة العذاب)، وهذا التعريف الذي يحمل معنى الإيجاز والتخفيف، أراد به الشاعر أن يلخص فحوى القصيدة في جملة واحدة، فالعنوان عندما تقرأه تفهم مباشرة المعاناة التي عاناها الشاعر في الزنزانة، أما تكملة العنوان (رقم 73)، فيقصد به رقم الزنزانة التي عذب فيها، وذكر الشاعر لهذا الرقم له تأويلاته، فقد وُظف لكي يصبح رمزا لكل صامد صابر مقاوم للتعذيب، مخلصا وفيلا لأسرار المقاومة، كما أردف الشاعر عنوانا فرعيا مرافقا للعنوان الرئيسي يقول: بنت الجزائر... أهوى فيك طلعتها، وهو يشبه هنا جمال الجزائر بجمال بنت الجزائر، فكلاهما بهتي الطلعة، وكأن الشاعر هنا يريد أن يخبرنا أن صبره أمام آلات التعذيب في السجن شيء يُستحق؛ لأن الجائزة في النهاية كبيرة وعظيمة، إنها الفوز بجمال الجزائر.

- "وتعطلت لغة الكلام": هو عنوان قصيدة نظمها في القاعة التاسعة في سجن بربروس في تاريخ التاسع من فيفري 1957، وعلى غير ما ابتدأت به العناوين السابقة، ابتدأ هذا العنوان بجملة فعلية، وهذا يدل على أن العنوان يحمل دلالة الاستمرار والتجديد، ولكن أي تجديد يقصد الشاعر؟. تعود مناسبة نظم القصيدة إلى خذلان المنظمة الدولية لقضية الجزائر في دورتها الثالثة عشر، وهنا نستطيع الوصول إلى المعنى الذي أراده الشاعر بفعل التجديد، فالشاعر أراد أن يوصل رسالة بأن المقاومة تحتاج إلى تجديد في آلياتها وفي طرق تعاملها مع العدو؛ من خلال التركيز أكثر على المقاومة بالسلح والرصاص، فالشكوي والمراسلات والكتابات التي كانت ترسل إلى هيئات الأمم المتحدة إلى هيئات حقوق الإنسان لم تجد نفعاً، فلغة الكلام تعطلت، ولكن لغة الرصاص لن تتعطل، ونجد تأكيداً على هذا في أبيات القصيدة التي تقول:

« نطق الرصاص، فما يباح كلام

وجرى القصاص، فما يتاح ملام

وقضى الزمان، فلا مرد لحكمه

وجرى القضاء، وامت الأحكام..»¹¹

فأمام حضور الرصاص يسقط الكلام، وما أخذ بالقوة ليس هنالك سبيل لأن يسترجع إلا بالقوة، وفرنسا التي كانت تدعي المدنية، استعملت في حربها على الجزائر كل الأسلحة المحرمة، ولم تتعامل يوماً بالحوار، لذلك كانت القصيدة رسالة من الشاعر لكل شخص كان يعارض المقاومة بالرصاص.

وهنالك عناوين أخرى لقصائد ألّفت في زنايات السجن المختلفة، وقد تم ذكرها في ديوان اللهب المقدس، الذي يُعد أبرز ديوان كتبه الشاعر، فهو يحوي أهم قصائده، ويضم أغلب قصائد الحبس، من بين تلك العناوين نجد (وقال الله، حروفها حمراء، إقرأ كتابك، فاشهدوا-النشيد الرسمي للثورة الجزائرية، نشيد الشهداء، نشيد بربروس، نشيد بنت الجزائر)، وكل عنوان يحمل حكاية، ويسرد قصة ما، بين جدران سجون يخشى الموت من دخولها.

ننتقل إلى شاعر آخر ذاق من مرارة الحبس الكثير، "أحمد سحنون" الشاعر الذي تعددت زياراته للسجن مجبراً، غير مخير، تعرض لكل أنواع التعذيب لكي يفشي أسرار المقاومة لكنه كان صبوراً مكافحاً، لم يستطع العدو الإيقاص من عزيمته. كتب الكثير من أشعاره وراء القضبان، وأبدع في عناوين تعكس التجارب الأليمة التي عايشها.

ومن بين العناوين الشعرية التي تحمل بين معانيها الحزن الشديد وقلة الحيلة والوسيلة هذا العنوان: "كفى حزناً!"، فالشاعر هنا يخاطب نفسه بأسلوب الأمر بأن يكف عن الحزن والبكاء، ولكن هذا أمر عصي على الشاعر، فظلام الزنايات وصوت آلات التعذيب جعل من الألم رفيقه الذي لا يكف عن إحزانه، ولكن الحزن الأكثر تأثيراً وضرراً هو الحزن النفسي؛ لأن وقعه يدوم ويخلد، وهذا الذي يصفه الشاعر في قصيدته، يصف كيف أن المعتقل المحتجز فيه قريب من البحر، بحيث يستطيع سماع صوته بوضوح، لكنه لا يستطيع الذهاب إليه، بل حتى رؤيته أو شم نسائته، في تصوير مؤلم وكتيب للحرية المقيدة المغتصبة، يقول:

« كفى حزناً أفي قريب من البحر ولا أجتلي ما فيه من روعة السحر

أصبح لي جأزاً قريباً ولا أرى محياه؟ ما لي عن محياه من صبر

إذا ما دجا ليلى سمعت هديره فيعصف بي شوق ينوء به صدري
فأقضي سواد الليل بالحزن والأسى إذا تج بي حزني لجأت إلى الشعر»¹²

على العموم جاءت عناوين شعر السجون عند "أحمد سحنون" واضحة، أسلوبها مباشر، أغلبها عناوين من كلمة واحدة، أو كلمتين، أو ثلاث، تعكس مضمون القصيدة بشكل واضح، ومن الأمثلة أيضا على تلك القصائد، العناوين التالية: (عصفورة، أنت، إلى ولدي: رجاء، إلى أولادي، إلى أي، يوم ميلاد، البطل، الفدائي، بلادي، يا لها من غربة، وداعا وداعا، ربيع السجن، ربيع ولكن، سجن وسجين، أي عيش، العنف والإقناع...)، وهي عناوين تعبر عن حنين الشاعر إلى عائلته، أولاده وإخوانه، وإلى الغربة التي يشعر بها في قبه، وتعب عن حالة الشوق والترب لليوم الذي سوف يذوق فيه الوطن طعم الحرية.

ب- سيميائية المكان/ السجن سبيل للتححر:

يشكل المكان في النص الأدبي الحيز الجغرافي الذي تدور فيه أحداث القصة، أو أبيات القصيدة، وبالتالي يلعب المكان دورا جوهريا في تخيل المبدع، فهو الذي يمر أفكاره، وفيه تتعايش ميولاته وقناعاته، وقد رأت السيميائية في المكان «رمزا مميزا يضطلع بوظيفة نسقية سياقية تفتح النص على دلالات ذات أبعاد غير محدودة في سلسلة من التأويلات الجمالية والثقافية...وعليه يصبح المكان في المنظور السيميائي جوهر العمل الأدبي، فهو يتجاوز تلك النظرة الأحادية للمكان باعتباره بنية تركيبية إلى بنية فنية وتصورية تساعد الكاتب والقارئ معا في العملية الإبداعية والتخييلية لنسج خيوط الدلالة بواسطة هذه الأماكن التي تم توظيفها»¹³

وقد شكل المكان حيزا مهما في قصائد السجون، فالسجن نفسه يعتبر مكانا (مكانا مغلقا)، وبالتالي تزداد الدلالة، وينفتح المعنى أكثر سيميائيا عندما تكون القراءة متعلقة بفضاء السجن، ومن هذا المنطلق سوف نعود إلى قصيدة "زنانة العذاب رقم 73"، لنتقصى حضور المكان فيها كحيز دلالي، القصيدة هي حديث في السجن وضد السجن، فهذا المكان الموحش، القاصي، يحاول الشاعر فيه أن يتحده وأن يظهر أمامه قوي لا يهاب التعذيب ولا التنكيل:

«سيان عندي، مفتوح ومنغلق يا سجن، بابك، أم شدت به الحلق
أم السياط، به الجلال يلهمني أم خازن النار، يكويني فأصطق
والحوض حوض، وإن شتى منابعه ألقى إلى القعر، أم أسقى فأشرق
سري عظيم، فلا التعذيب يسمح لي نطقا، ورب ضعاف دون ذا نطقوا
يا سجن، ما أنت؟ لا أخشاك تعرفني من يحدق الحر، لا يحدق به الغرق»¹⁴

يصف الشاعر هنا فضاء السجن المادي الموحش المرعب، ويسرد كيف أن سياط الجلال دائما ما تضربه، وخازن النار دائما ما يكويه، وحوض الماء يقطع نفسه، لكن رغم وحشية المكان إلا أن الشاعر تحداه، وصرح أنه لا يخشاه، وسوف ينتصر عليه يوما، بل وجعل منه مصنع المجد ومهبط الوحي، فيه يكتب أعذب الأشعار، يكتب بدمه إذا غابت الأقلام والصحف، وفيه يكتب بدمه إذا جفت الدماء، فسجن "بربروس" أصبح رمز الكفاح والنضال. وتحول بالنسبة لمفدي زكريا، وبالنسبة للثوار مكانا حميميا، ورمزا من رموز المقاومة، رغم المعاملة الوحشية التي لقوها فيه، ليعلموا انتصارهم عليه، كيف لا ونشيد الثورة، والنشيد الوطني كتب فيه.

وبالنسبة لدلالات الفضاء السجني في أشعار أحمد سحنون سنجد أنها تختلف إلى حد ما عن ما وجدناه عند مفدي زكرياء، فرغم أن سحنون تغلب على التعذيب الجسدي المفروض عليه في السجن بيد أنه استسلم لطول الفراق، وعبر عن اشتياقه وحنينه لأحبابه في أكثر من قصيدة، واعترف بضعف حيلته أمام وحدته، وموته البطيء أمام الفراغ الذي يعيشه:

«أي عيش بين جدران بها سجن حرّ؟ لم يكن فيما أتى من عمل للناس ضُرّ

إنما نبه للوضع الذي ليس يسرّ إذ رأى شعبا يحلو اللفظ والوعد يغر

راضيا بالليل بعد الفجر لا يعنيه أمر وهو نسل الألى كان لهم علم وفكر»¹⁵

فقد كان للشعر الذي يكتبه دفاعا عن الهوية الوطنية، وتعظيما للثورة التحريرية متنفس آخر له، ينسبه في وحشة المكان، كما وجد الشاعر في التقرب إلى الله ومناجاته علاجا لوحده في السجن، ويمكن القول إن الاستعانة بالله سبحانه وتعالى هي مصدر الطاقة الأول الذي ساعد السجناء على الصبر على معاناتهم:

«إن تكن زنانتني ضيقة إن ذكر الله قد وسعها

إن من ينسى الذي أبدعه يذكر الدنيا التي أبدعها

ما حياة الناس إلا فرصة قد أتحت ويح من ضيعها

إن ذكر الله زاد وغدا لنفوس طالما أشيعها»¹⁶

فيتحول هنا ذكر الله إلى علامة سيميائية، لها دلالات متعلقة بالقيمة الجوهرية التي يحملها الدين الإسلامي عند الشاعر "أحمد سحنون" وعند الشعراء الجزائريين بصفة عامة، لذلك كان حظور ألفاظ الذكر والحمد والشكر طاغيا في قصائد الشاعر، فذكر الله هو الذي يوسع من مساحة الزنانات الضيقة، وهو الذي يطمئن المجاهد والمقاوم بأن الحرية سوف يأتي يومها لا محال؛ لأنه مؤمن بأن الله لا يخلف وعده للنائر.

إذن كان "أحمد سحنون" صابرا قانعا بما ابتلاه الله به، كما كان قوميا من الدرجة الأولى، محبا لوطنه حد الجنون. تميز كلامه رفقة بقية الشعراء الذين تعرضوا إلى ظلم السجن بالصدق في التعبير الفني؛ لأن الحزن التي نظموها في قصائدهم نابعة من تجارب حقيقية عاشوها وعاشوها، ومن هنا شكل هؤلاء الشعراء عنصرا فاعلا وفعالا في مشوار الكفاح ضد المستعمر، وكانوا ورقة الثورة الراجحة التي استعملتها للحصول على الحرية، فالشعر الذي يكتب بالدم في جدران السجن لا بد أن يكون وقعه قويا على النفوس والقلوب المستقبلة له.

4. خاتمة:

وبعد رحلتنا العلمية هذه، توصلنا إلى مجموعة من النتائج نلخصها في ما يلي:

- تناول الشعراء العرب القدامى السجن والأسر في قصائدهم، وقد كان هجاء السلاطين والأسر في الحروب أهم الأسباب التي أدخلتهم السجن، أما في العصر الحديث فقد توسعت دائرة توظيف السجن في القصائد، وأصبح مرتبطا بالقوموية، والحرية، وبالثورات التحريرية ضد المستعمر.

- كان لشعر السجون دورا مؤثرا في تحريك مشاعر الثوار، وفي توثيق مفهوم الحرية، وكان هو أحد ألسن المقاومة الجزائرية، من خلال قصائد تدعو إلى القتال وإلى الجهاد في سبيل تحرير الوطن من مخالب المستعمر.
- تميزت العناوين في قصائد السجون بقوة المعنى، وزجالة المبنى، تصور المضمون بأسلوب موجز، يبعث الحماس في نفس القارئ.
- تم تصوير فضاء السجن على أنه فضاء موحش ومرعب، ومركز تعذيب لا رحمة فيه، وتم التعبير فيه عن آلام الشعراء وحزنهم ووحدهم، وحنينهم واشتياقهم إلى أهلهم وأصحابهم.
- تحول السجن مع بعض الشعراء من أمثال مفدي زكرياء إلى مركز حقيقي للمقاومة، يعبرون فيه عن أهدافهم وأحلامهم، وخططهم وترتيباتهم لمواجهة الآخر، ولشحن الثوار والمناضلين، والرفع من معنوياتهم وتوجيههم.

هوامش:

- ¹ قيس مغشغش السعدي، 2009، أبو إسحاق الصابي درر النثر وغرر الشعر، ط1، أبريل، المديرية العامة للصحافة والطباعة والنشر، ص 418
- ² أحمد مختار البزدة، 1985، الأسر والسجن في شعر العرب، ط1، دمشق، مؤسسة علوم القرآن، ص 456
- ³ واضح الصمد، 1995، السجون وأثرها في الآداب العربية، ط1، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص 105
- ⁴ محمود درويش، 2005، الأعمال الأولى 1، ط1، بيروت، رياض الريس للكتب والنشر، ص 102-103
- ⁵ ينظر، صلاح فضل، 2005، جاليات الحرية في الشعر، ط1، القاهرة، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ص 09
- ⁶ فيصل الأحمر، 2010، معجم السيميائيات، ط1، الجزائر، منشورات الاختلاف، ص 17
- ⁷ ينظر، لطيف زيتوني، 2002، معجم مصطلحات نقد الرواية، ط1، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ص 125
- ⁸ خالد أقيس، 2015، العنوان وبناء وجهة النظر الأيديولوجية، عناوين القصائد الشعرية المنشورة في الشهاب نموذجاً، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، ع 44، ص 180
- ⁹ عبد المالك أشهون، 2011، العنوان في الرواية العربية، ط1، دمشق، الناي للدراسات والنشر والتوزيع، ص 19-20
- ¹⁰ مصطفى بيطام، 1998، الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي 1954-1962، دط، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 151
- ¹¹ مفدي زكرياء، 2007، اللهب المقدس، دط، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ص 41
- ¹² أحمد سحنون، 2007، ديوان الشيخ أحمد سحنون، الديوان الأول، ط2، الجزائر، منشورات الخبر، ص 36
- ¹³ إسماعيل هيدش وعموري سعيد، 2022، سيميائية المكان في الخطاب الروائي عند إسماعيل بيري، رواية وصية المعتوه أنموذجاً، جسور المعرفة، مجلد8، عدد4، مجلد 8، ص 379
- ¹⁴ مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص 25
- ¹⁵ أحمد سحنون، 2007، ديوان الشيخ أحمد سحنون، الديوان الثاني، ط1، الجزائر، منشورات الخبر، 2007، ص 14
- ¹⁶ المصدر نفسه، ص 9

قائمة المراجع:

1. أحمد سحنون، 2007، ديوان الشيخ أحمد سحنون، الديوان الأول، ط2، الجزائر، منشورات الخبر.
2. أحمد سحنون، 2007، ديوان الشيخ أحمد سحنون، الديوان الثاني، ط1، الجزائر، منشورات الخبر، 2007
3. أحمد مختار البزدة، 1985، الأسر والسجن في شعر العرب، ط1، دمشق، مؤسسة علوم القرآن. إسماعيل هيدش وعموري 4. سعيد، 2022، سيميائية المكان في الخطاب الروائي عند إسماعيل بيري، رواية وصية المعتوه أنموذجا، جسور المعرفة، مجلد8، عدد4، مجلد 8، ص39
5. خالد أقيس، 2015، العنوان وبناء وجهة النظر الأيديولوجية، عناوين القصائد الشعرية المنشورة في الشهاب نموذجاً، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، ع 44، ص 180
6. صلاح فضل، 2005، جاليات الحرية في الشعر، ط1، القاهرة، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي
7. عبد المالك أشهبون، 2011، العنوان في الرواية العربية، ط1، دمشق، النايا للدراسات والنشر والتوزيع.
8. فيصل الأحمر، 2010، معجم السيميائيات، ط1، الجزائر، منشورات الاختلاف
9. قيس مغشغش السعدي، 2009، أبو إسحاق الصابي درر النثر وغرر الشعر، ط1، أرييل، المديرية العامة للصحافة والطباعة والنشر.
10. لطيف زيتوني، 2002، معجم مصطلحات نقد الرواية، ط1، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون.
11. حمود درويش، 2005، الأعمال الأولى 1، ط1، بيروت، رياض الريس للكتب والنشر.
12. مصطفى ييطام، 1998، الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي، د.ط، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
13. مفدي زكرياء، 2007، اللهب المقدس، د.ط، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
14. واضح الصمد، 1995، السجن وأثرها في الآداب العربية، ط1، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
15. وليد حمود الصراف، د.ت، الشعر وقضبان السجن عند شعراء بني العباس، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، النجف مجلد 2، عدد 69، ص 314